معانى الشعراء
بين الأخذ والابتكار

دكتور محمد حسن حجازى

الأدب فن يرصد مظاهر الحياة ويسجل تاريخها ، ويرسم الطريق إلى مستقبلها المنشود بما يملكه من وسائل تدفع الهمم وتثير الغرائز وهى وسائل تصطنع الكلمة الموحية ، والصـــورة المؤثرة فتمتزج الفكرة بالأحاسيس والشاعر والصور .

والأديب فى كل عصر يسلم نتاجه وآثاره إلى خلفه الذى ينظر فيه ويزيد عليه ، أو يحيله ، بحكم ماتوافر له من عوامل ومؤثرات جديدة لم تكن متاحة لسابقه مما يتيح للأفكار أن تنمو وتمتد ، وللصور أن تتطور وتبتكر ، « فالشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء »(١) .

ولولا ذلك لوقفت الأفكار والصور والأساليب عند حد لاتتجاوزه وأنسد الباب فى وجه الأجيال التالية ، وعجز الأدب عن ملاحقة الحياة فى تطورها .

وموضوعات الأدب وصوره كثيرة ومتنوعة ، وكل أديب يختار الموضوعات التى يعبر عنها حسبما يتفق مع تكوينه واستعداده الفنى .

فهناك الموضوعات العامة المتاحة أمام الجمع ، كالوصف بالشجاعة

---

(١) الوساطة للجرجانى ص ١٨٣ .

والكرم ، والبهاء ، وما يجرى هذا المجرى مما لا يختص به أحد دون أحد حتى قال زهير :

ما أرانا نقول إلا معارا أو معادا من لفظنا مكرورا

وهناك موضوعات خاصة تحتاج إلى دقة نظر وحسن تفكير ، مما يكون من حق مبتكره والسابق إليه ، ويمكن لغيره أن يتبعه ، كما قال أبو تمام .

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

وتبعه البحترى فقال :

ولن تستبين الدهر موضع نعمة
إذا أنت لم تدلل عليها بحاسد

وكان هذا الموضوع موضع ملاحاة بين الشعراء جرير والفرزدق يدعى كل منهما أن صاحبه يأخذ منه ، فالفرزدق يخاطب جريرا :

أن تذكروا كرمى بلؤم أبيكم وأوايدى تتنحلوا الأشعار

وغضب على البعيث المجاشعى لما أخذ أحد معانيه فقال فيه .

إذا ما قلت ما فيه شرودا تنحلها ابن حمراء العجان

ولما قال بشار :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته
وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

وتبعه سلم الخاسر فقال :

من راقب الناس مات غما وفاز باللذة والجسور

غضب بشار وقال : أتأخذ معانى التى عنيت بها وتعبت فى استنباطها

فتكسوها ألفاظا أخف من ألفاظى حتى يروى ما تقول ويذهب شعرى، لا أرضى عنك أبداً .

على أن هذا لم يمنع المحافظين من النقاد من ادعاء أن الشعراء القدماء قد سبقوا إلى أرساء قواعد الفن الشعرى معنى ومبنى(١) .

وقد شاع هذا القول حتى أن الجرجانى قال فى بعض دفاعه عن المحدثين: « ومتى أنصفت علمت أن أهل عصرنا ثم العصر الذى بعدنا أقرب إلى المعذرة وأبعد من المذمة لأن من تقدمنا قد استغرق المعانى وسبق إليها وأتى على معظمها ، وإنما يحصل على بقايا إما أن تكون تركت رغبة عنها واستهانة بها ، أو ليعد مطلبها واعتياص مراحها وتعذر الوصول إليها ومتى أجهد أحدنا نفسه وأعمل فكره وأتعب خاطره وذهنه فى تحصيل معنى يظنه مبتدعا ، ونظم بيت يحسبه فرداً مخترعا . ثم تصفح عنه الدواوين لم يخطئه أن يجده بعينه أو يجد له مثالا يعضى من حسنه »(٢) .

ويظهر أن هـذا الاعتقاد لم يسيطر على النقاد ، فقط بل تعداهم إلى الشعراء فهذا عنترة يقول :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم

مع أنه قد أبدع ما لم يسبق إليه فى القصيدة التى منها هذا البيت(٣) .

والحق أن الأصالة الفنية ليست حكرا على جيل من الشعراء دون جيل وإنما هى تفوق فنى يظفر به كل من يملك وسائله من حس وذوق وذكاء ورغبة فى التفوق والإجادة .

---

(١) العمدة ، حـ ١ صـ ٩٢

(٢) الوساطة ص ٢١٤ ، ٢١٥

(٣) العمدة جـ ١ صـ ٩٠

وإذا كان القدماء قد ابتكروا وأبدعوا ، فإن للمحدثين فى هذا المجال جهودا لا تنكر وصورا لم تخطر للقدماء على بال ، من ذلك قول بشار .

يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة
والأذن تعشق قبل العين أحيانا

قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم
الأذن كالعين توفى القلب ما كانا

وقوله :

وكيف تقاس من كأن حديثه بأذنى وإن غيبت فرط معلق

وقول أبى تمام وهو من أكثر شعراء عصره ابتداعا(١) .

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت
ما كان يعرف طيب عرف العود

وقوله :

لا تنكروا ضربى له من دونه
مثلا شرورا فى الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل بنوره مثلا من المشكاة والنبراس

وقول ابن الرومى وهو من عجيب شعره

عينى لعينك حين تنظر مقتل لكن لحظك سهم حتف مرسل
ومن العجائب أن معنى واحدا
هو منك سهم وهو منى مقتل(٢)

---

(١) المثل السائر جـ ٢ صـ ٢٣
(٢) العمدة جـ ٢ ص ١٤٤

وقوله :

وما يعتريها آفـة بشرية من النوم إلا أنها تبختر

ومن عجب طيب أنفاس روضته

منورة باتت تراح وتمطر

كذلك أنفاس الرياض بسحرة تطيب وأنفاس الورى تتغير

وقول المتنبى فى مدح سيف الدولة :

أجزنى إذا أنشدت مدحا فإنما بشعرى أتاك المادحون مرددا

ودع كل صوت بعـد صوتى فإننى

أنا الصائح المحكى والآخر الصدى

وقوله فيه أيضاً :

فإن تفـق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

وقوله مشيدا ببطولته فى حرب الروم

صدمتهم بخميس أنت عزته وسمهريته فى وجهه غمم

فكان أثبت ما فيهم جسومهم

يسقطن حولك والأرواح منهزم

فهذه النماذج وغيرها كثير تحمل معان بديعة وصورا طريفة تناولت أغراضا شتى ابتدعها المحدثون بما لهم من قدرة فنية، وحس وهف ومخيلة دقيقة رصدت مظاهر التطور الحضارى وعبرت عن كل ذلك فى أحسن تعبير . فالمعانى إنما اتسعت لاتساع الناس فى الدنيا، وإنتشار العرب بالإسلام فى أقطار الأرض فمصروا الأمصار وحضروا الحواضر . وإذا تأملت هذا تبين لك ما فى أشعار الصدر الأول من الإسلاميين من الزيادات من معانى القدماء والمخضرمين ثم ما فى أشعار طبقة جرير والفرزدق وأصحابها من التوليدات والإبداعات العجيبة التى لا يقع مثلها للقدماء إلا فى الندرة

القليلة والقلة المفردة ، ثم أتى بشار بن برد وأصحابه فزادوا معانى ما مرت قط بخاطر جاهلى ولا إسلامى ، والمعانى أبداً تتردد وتتولد والكلام يفتح بعضه بعضاً(١) .

ولا بد أن ابن رشيق فى عبارته السابقة يريد بالمعنى وتوالده، إخراجه فى صوره فنية بديعة وإطار جميل ، وقد أشار الإمام عبد القاهر إلى ذلك فى حديثه عن المعنى ومعنى المعنى ، فهو يقصد فالمعنى دلالة اللفظ المعجمية وبمعنى المعنى ما وراء ذلك من إيحاءات تتفرع من المجاز والتمثيل والكناية .

يقول عبد القاهر : الكلام على ضربين :

ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلا بالخروج على الحقيقة فقلت خرج زيد .

وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن بدلك اللفظ على معناه الذى يقتضيه موضوعه فى اللغة ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل .. وإذا عرفت هذه الجملة فهاهنا عبارة مختصرة وهى أن تقول : المعنى ، ومعنى المعنى . تعنى بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذى تصل إليه بغير واسطة وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضى بك ذلك المعنى إلى معنى آخر كالذى فسرت لك(٢) .

وهذا يفهم من قول العسكرى : « والمعانى على ضربين : ضرب يبتدعه صاحب الصناعة من غير أن يكون له إمام يقتدى به فيه ، أو رسوم قائمة

---

(١) العمدة حـ٢ ص ٢٣٨

(٢) دلائل الإعجاز ص ٢٧٢ ، ٢٧٣

فى أمثلة عماثلة يعمل عليها ، وهذا الضرب ربما يقع عند الخطوب الحادثة ويتنبه إليه عند الأمور الطارئة .

والآخر : ما يحتذيه على مثال تقدم ووسم فرط(١) .

ومن أمثلة الضرب الأول قول عنترة فى وصف روضة

فترى الذباب بها يغنى وحده هزجا كفعل الشارب المترنم
عرذا يحك ذراعه بذراعه فعل المكب على الزناد الأجذم

وقول امرئ القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا
لدى وكرها العناب والحشف البالى

والضرب الثانى الذى يقوم على إستخراج معنى طريف من معنى متقدم كقول نصيب فى مدح عمر بن عبد العزيز .

فأنت رأس قريش وابن سيدها
والرأس يكون فيه السمع والبصر

وقول على بن جبله فى مدح أحد أمراء عصره .

فالناس جسم وإمام الهدى رأس وأنت العين فى الرأس

وباب السرقات من أهم أبواب النقد العربى ، فلا نكاد نجد كتابا فى البلاغة أو فى النقد الأدبى خاليا من البحث فى مسائل هذا الباب كمظهر من مظاهر النشاط الإنسانى فى مجال من أخصب مجالاته وهو مجال الأدب الراقى والتعبير الجميل ، وخصوصا منذ ظهر أبو تمام وقيام الخصومة حوله وإنقسام الناس إلى فريقين :

---

(١) الصناعتين ص ٧٥

١ — فريق تعصب ضده ويتخذ من موضوع السرقات سلاحاً قوياً للحط من شأنه .

٢ — وفريق يتعب له ويدافع عنه ويرى أنه صاحب مذهب جديد يستحق به أن يكون إماماً للشعراء .

ولعل أول كتاب ألف بهذا العنوان كتاب عبد الله بن المعتز .

سرقات الشعراء ، ثم ألف أحمد بن أبي طاهر وأحمد بن عمار في سرقات أن تمام وألف بشر بن تميم كتابا في سرقات البحتري من أبي تمام .

وابن قتيبة يذكر في كتابه « الشعر والشعراء » شيئاً من أخذ الشعراء السابقين مثل قوله :

فما أخذه الشعراء من شعر امرىء القيس ، قال امرؤ القيس :

وقوفا بها صحبي على مطيهم
يقولون : لا تهلك أسى وتجمل

أخذه طرفة فقال :

وقوفا بها صحبي على مطيهم
يقولون : لا تهلك أسى وتجلد

وقال امرؤ القيس يصف الناقة :

كأن الحصى من خلفها وأمامها
إذا نجلته رجلها حذف أعسرا(١)

---

(١) نجلته : رمته بمناسمها ، الحذف : رمى الحصا بالأصابع الأعسر : الذي يعمل بيسراه فاذا حذف بها فقلما أصاب .

أخذه الشماخ فقال :

لها منسم مثل المحارة خفة
كأن الحصى من خلفه حذف أعسرا(١)

وقال عن زهير ، ويستحسن أيضاً قوله(٢) :

هو الجواد الذى يعطيك نائله
عفوا ويظلم أحيانا فينظلم

قد سبق زهير إلى هذا المعنى لا ينازعه فيه أحد غير كثير ، فانه قال بمدح عبد العزيز ابن مروان .

رأيت ابن ليلى يعترى صلب ماله
مسائل شتى من غنى ومصرم
مسائل أن توجد لديه تجد بها
يداه وان يظلم بها يتظلم

ولعل فى تعبيره بالأخذ — دون السرقة — ما يدل على أن ذلك عند القدماء أدنى الى التوارد منه الى الاغارة والسلب(٣) .

كما كتب أبو على محمد بن العلا. السجستانى يزعم أنه لم يخلص لأبى تمام من معانيه كلها الا ثلاثة .

وكذلك كتب مهلهل من يموت فى سرقات أبى نواس وتناول الآمدى تلك القضية فى الموازنة .

---

(١) المحارة : الصدفة ، شبه بها منسم الناقة
(٢) الشعر والشعراء : حـ ١ ص ١٤٠
(٣) أصول النقد الأدبى : ص ٢٦٦

ثم ظهر المتنبي وقامت الخصومة حوله أيضا، فكتب أبو سعيد محمد ابن أحمد العميدى المعوفى سنة ٤٣٣ هـ كتابه الإبانة عن سرقات المتنبي لفظا ومعنى .

هذا إلى ما نجده فى رسالة الصاحب ومناظره الحاتمى ، وغيرهما من إتهامات من هذا النوع .

وقد كان لنشأة تلك الدراسات وسط الخصومات أثر سيء فى توجيهها فرأيناها تسعى قبل كل شيء إلى تجريح الشعراء ، ولهذا لم تستقم المبادىء التى احتكموا إليها ، كما أنهم لم يفرقوا بين السرقة وغيرها وكان من الواجب أن يميزوا بين :

١ — الاستيحاء : وهو أن يأتى الشاعر أو الكاتب بمعان جديدة تستدعيها مطالعاته فيما كتب غيره ، وهذا علامة القراءة النافعة ، وثمرة الفكر النشيط .

٢ — إستعارة الهياكل : كأن يأخذ الشاعر أو الكاتب موضوع قصيدته أو قصته عن أسطورة شعبية أو خبر تاريخى ، وينفث الحياة فى هذا الهيكل حتى ليكاد يخلقه من العدم .

٣ — التأثر : وهو أن يأخذ الأديب بمذهب غيره فى الفن أو الأسلوب وقد يكون التأثر تلذذ ، كما يكون من غير وعى ، وذلك حين يفرض أديب كبير مذهبه على غيره ، فيتأثرونه بشكل ما فتكون من ذلك مدرسة أدبية ممتازة ، والنقد هو الذى يكشف عن نوع هذا التأثر ومقداره .

٤ — الإنتحال أو السرقة : وذلك عندما يدعى الأديب أفكار غيره أو بعض آثاره دون إشارة إلى مصدرها ، وهذا قليل الحدوث فى العصر

الحديث(١) . لم يفرق النقاد العرب فى دراستهم للسرقات بين كل هذه الأشياء وإنما راحوا يردون أبيات الشاعر الذى يريدون تجريحه إلى أبيات تشبهها شبها قريبا أو بعيداً فى المعنى أو فى اللفظ أو فيهما معاً ، بل لقد افتنوا فى ذلك فردوا الكثير من الشعر إلى جمـــل نثرية من القرآن والحديث وأقوال السابقين واللاحقين من خطباء وحكماء على الرغم من خروج بعض ذلك فى صور مقبولة كقول المتنبى :

وكل امرىء يولى الجميـــل محبب
وكل مكان ينبت العز طيب

فلا شك أنه تأثر فيه لقول الله عز وجل فى سورة فصلت :

« ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » .

وقول النبى ﷺ : « جبلت القلوب على حب من أحسن إليها » .

ومن حسن الإتباع أن أحمد بن يوسف سمع قول على بن أبى طالب رضى الله عنه : « لا تكونن ممن يعجز عن شكر ما أوتى ويلتمس الزيادة فيما بقى » فكتب : « أحق من أثبت لك العذر فى حال شغلك ، من لم يخل ساعة من برك فى وقت فراغك »(٢) وقال أبو نواس :

لا تسدين إلى عارفـــة حتى أقوم بشكر ما سلفا

فكان لأسلوب الشعر الجميل روعة وخفة فوق الصراحة القوية بعدم إنتظار معروف جديد حتى يشكر ما سلف .

---

(١) النقد المنهى عند العرب ومندور ص ٢٥٨ ، أصول النقد الأدبى الأستاذ الشايب ص ٢٧٨

(٢) أصول النقد الأدبى : للأستاذ أحمد الشايب ص ٢٧٢

ولا شك أن قول المتنبي :

نحن بنو الموتى فما بالنا نفاق ما لا بد من ورده

أروع من قول أرسطو : « كره ما لابد من كونه هجز فى صحه العقل» لجمال الأسلوب ، وإن كان أخص منه معنى(١) .

وإذا شئنا أن نعرف كيف تستحيل الفكرة أثناء إنتقالها بين الشعراء نظرنا فى قول الشاعر :

خلقنا لهم فى كل عين وحاجب
بسمر القنا والبيض عينا وحاجبا

وقول ابن نباتة :

خلقنا بأطراف القنا فى ظهورهم
عيونا لها وقع السيوف حواجب

إذ نرى الثانى يزيد فى المعنى زيادة تدل على هزيمة العدو بقوله فى ظهورهم ، وإن كانت الصورة متشابهة فى البيتين(٢) .

وفى قول بشار :

ضنت بخد وجلت عن خـــد
ثم انثنت كالنفس المـــــرتد

قال ابن عبد ربه فى العقد الفريد(٣) ، أصل هذا المعنى لقيس بن الخطيم إذ قال :

---

(١) أصول النقد الأدبى : ص ٢٧٤
(٢) المرجع السابق ص ٢٧٤
(٣) حـ ٥ ص ٣٧٩

تبدت لنا الشمس تحت غمامة
بد الحاجب منها وضنت بحاجب

أخذه بعض المحدثين فقال :

فشبهتها بدرا بدا من ـــــه شقه
وقد سترت حذا فأبدت لنا خدا

وأخذ بشار فقال :

ضنت بخد وجلت عن خد
ثم انثنت كالنفس المـــــرتد

فلم يفسد الآخر قول الأول ، ولم يكن الأول بالمعنى أدلى من الآخر . .

وقد وضعت بعض الكتب فى ذلك عن هوى ممقوت خرج بها عن حد الإنصاف فالآمدى يحدثنا عما فعله أبو الضياء بشر بن تميم فى إخراجه لسرقات البحترى من معانى أبى تمام فيقول : إنه استقصى ذلك استقصاء بالغ فيه حتى تجاوز إلى ما ليس بمسروق فكفانا مؤونه الطلب »(١) .

ثم يقول مبرراً إغفاله بعض ما ذكره أبو الضياء : « غير أنى أطرحت سائر ما ذكره أبو الضياء بعد ذلك لأنه لم يقنع بالمسروق الذى يشهد التأمل الصحيح بصحته حتى تعدى ذلك إلى الكثير ، وإلى أن أدخل فى الباب ما ليس منه بعد أن قدم مقدمة افتتح بها كلامه وقال : ينبغى لمن نظر فى هذا الكتاب أن لا يعجل بأن يقول : ما هذا مأخوذ من هذا

---

(١) الموازنة : للآمدى ص ٢٨٦

حتى يتأمل المعنى دون اللفظ ويعمل الفكر فيما خفى ، فإنما السرق فى الشعر ما نقل معناه دون لفظه وأبعد آخذه فى آخذه »(١) .

فأبو الضياء يسرف فى مذهبه ويدعى أنه يستطيع أن يفطن إلى السرقات الخفية .

أما الآمدى فلا يرى سرقا فى المعانى المشتركة ، وإنما يكون السرق فى البديع المخترع الذى يختص به الشاعر(١) .

وعلى ذلك فلا سرقة عند الآمدى فى :

١ — الإتفاق : فى المعانى المستعملة الجارية مجرى الأمثال ، فقول البحترى :

ويبيت يحلم بالمكارم والعلى
حتى يكون المجد جل منامه

ليس مأخوذاً من قول أبى تمام :

جرى الجود مجرى النوم منه فلم يكن
بغير سماح أو طعان بحالم

لأن هذا الكلام موجود فى عادات الناس ومعروف فى معانى كلامهم وجار كالمثل على ألسنتهم بأن يقولوا لمن أحب شيئا أو استكثر منه فلان لا يحلم إلا بالطعام ، وفلان لا يحلم إلا بفلانه من شدة وجده بها . . ولا يقال لمن كانت هذه سبيله : سرق . وإنما يقال له : إتفاق ، فان كان

---

(١) المرجع السابق ص ٢٨٧
(٢) الموازنة للآمدى ص ٣١٣

واحد سمع هذا المعنى أو مثله من آخر فاحتذاه فانما ذكر معنى قد عرفه واستعمله . لا أنه أخذه أخذ سرقة(١) .

وقول البحترى :

فإذا لقيتهم فموكب أنجم زهرة وعبد الله بدر الموكب

ليس مأخوذاً من قول أبى تمام :

كأن بنى نبهان يوم وفاته
نجوم سماء خر من بينها البدر

لأن هذا معنى متقدم مبتذل جاء به النابغة وغيره ، وكثر على الألسن حتى صار أشهر من كل مشتهر .

وقول البحترى :

خلق ممثلة بغير خلائق ترجى وأجسام بلا أرواح

ليس مأخوذاً من قول أبى تمام :

لهم نشب وليس لهم سماح وأجسام وليس لهم قلوب

لأن هذا الكلام أيضا هو أعرف فى كلامهم وأشهر من أن يحتاج شاعر أن يأخذه من الآخر ، وهم دائما يقولون : ما فلان إلا شبح من الأشباح وما هى إلى صورة فى حائط ، أو جسد فارغ ونحو هذا من القول الشائع(٢) .

---

(١) الموازنة ص ٣١٤
(٢) الموازنة ص ٣١٩

٢ — الأمثال والأقوال السائرة :

فقول البحترى :

على أنا نوكل بلادانى وتخبرنا الفروع عن الأصل

ليس مأخوذاً من قول أبى تمام :

وفى شرف الحديث دليل صدق

لمختبر على شرف القديم

لأن هذا معنى شائع فى الكلام ، مشهور كثير على الأفواه أن يقولوا : أن العروق عليها ينبت الشجر ، ومن أشبه أبا فما ظلم . ومثل هذا لا يكون مأخوذا مستعاراً(١) .

٣ — اختلاف الغرض ينفى السرقة :

فقول البحترى :

ما لشىء بشاشة بعد شىء

كتلاق مواشك بعد بين

ليس مأخوذا من قول أبى تمام :

وليس فرحة الأدبات إلا

لموقوف على ترح الوداع

فهذا معنى مستفيض معروف ومنه قول الحجاج بن يوسف : لولا

---

(١) المرجع السابق ص ٣٢١

فرحة الأدبات لما عذبتم إلا بالأسفار ، وغرض كل واحد من هذين الشاعرين فى هذين البيتين مخالف لغرض صاحبه ، لأن أبا تمام ذكر أنه لا يفرح بالقدوم إلا من شجاه وأحزنه التوديع ، وأراد البحترى أنه ليس شىء من المسرة والجذل إذا جاء فى أثر شىء ما كالتلاقى بعد التفرق ، فليس — وإن كان جنس المعنيين واحد — يصح أن يقال : أن أحدهما أخذ من الآخر لأن هذا قد صار جاريا فى العادات وكثيراً على الألسن فالتهمة ترتفع عن أن يأخذ أحد آخر(١) .

٤ — ولا سرقة أيضا فى الألفاظ الشائعة :

يقول الآمدى : « ومما إدعى أبو الضياء على البحترى فيه السرق ، والإتفاق فى أكثر ذلك إنما هو فى الألفاظ التى ليست محظورة على أحد . . »(١) فقول البحترى :

بأبيض وضاح كأن قميصه
يزر على الشيخين زيد وحاتم

ليس مأخوذاً من قول أبى تمام .

وما يوم زرت اللحد يومك وحده
علينا ولكن يوم زيد وحاتم

أفترى البحترى ما سمع بذكر زيد الخيل ولا حاتم الطائى اللذين يفخر بهما اليمن كلها فيشبه ممدوحة بهما إلا من بيت أبى تمام ؟

---

(١) الموازنة ص ٣١٨
(٢) الموازنة ص ٣٣١

وقول البحترى :

زنت الخلافة أشراقا وقد حبطت
وزدت عن حقها بالسيف والقلم

ليس من قول أبى تمام :

لولا مناشدة القـــربى لغادركم
فريسة المرهفـــين السيف والقلم

و كذلك أيضا لم يكن البحترى يهتدى إلى الجمع بين السيف والقلم لو لم يجمعهما له أبو تمام(١)

وإذن فنظرية الآمدى فى السرقات هى أن السرق لا يكون إلا فى البديع المخترع الذى يختص به الشاعر ، وأنه لا سرقة فى :

١ — العام المشترك من المعانى .

٢ — الألفاظ المباحة الشائعة .

ثم أن العام المشترك قد يستجاد من شاعر دون شاعر ، وذلك عندما يتناوله الشاعر ويفرغ عليه من ألوان التجديد ما يجيله بديعا مخترعا ، وفى ذلك يقول القاضى عبد العزيز الجرجانى : قد تشترك الجماعة فى الشىء المتداول ، وينفرد أحدهم بلفظة تستعذب أو ترتيب يستحسن أو تأكيد يوضع موضعه أو زيادة اهتدى لها دون غيره ، فيربك المبتذل فى صورة المبتدع المخترع » .

ثم يقول : « ولم نزل العامة والخاصة تشبه الورد بالخدود ، والخدود بالورد نثرا ونظما ، وتقول فيه الشعر فتكثر وهو من الباب الذى لا يمكن

---

(١) الموازنة : ص ٣٢٥

ادعاء السرقة فيه إلا أن يتناول زيادة تضم إليه أو معنى يشفع به كقول علي بن الجهم .

عشيـــة حيـاتى بورد كأنه
خدود أضيفت بعضهن إلى بعض

فاضافة بعضهن إلى بعض له وأن أخذ فمنه يؤخذ وإليه ينسب(١) . لقد زاد زيادة طريفة أرتنا صورة حية ناضرة ، للخدود الممتلئة بماء الحياة والشباب ، وقد أضيف بعضهن إلى بعض .

ويذكر الجرجانى تصرفا آخر لأبى سعيد المخزومى فى تشبيه الورد بالخد وذلك فى قوله :

والورد فيـه كأنما أوراقه نزعت ورد مكانهن خدود

« فلم يزد على ذلك التشبيه المجرد ، لكنه كساه هذا اللفظ الرشيق ، فصرت إذا فتنته إلى غيره وجدت المعنى واحدا ثم أحسست فى نفسك هزة ووجدت طربة تعلم لها أنه أنفرد بعضلة لم ينازع فيها ومن ذلك » .

ومن ذلك مثلا قول امرىء القيس فى وصف الطلل

لمن طلل أبصرته فشجانى كخط زبور فى عسيب يحانى

وقول حاتم الطائى متناولا المعنى نفسه

اتعرف أطلالا ونؤيا مهدما كخطك فى رق كتابا منمما

وقول الهذلى كذلك

عرفت الديار كرقم الكتا ب يزبره الكاتب الحميرى

فهؤلاء الشعراء الثلاثة يتناولون معنى واحدا وهو تشبيه الطلل بحروف

---

(١) الوساطه : ص١٨٧ وما بعدها .

للكتاب ومع هذا فقد عبر كل واحد منهم عن إحساسه بهذا المعنى فى صورة تختلف فى بعض ملامحها عن صورة الآخر .

ثم جاء بعدهم لبيد العامرى فجمع فى بيت واحد ما جاء فى الأبيات السابقة وهو قوله :

وجلا السيول عن الطلال كأنها زبر تجد متونها أقلامها

فالمستحق بذلك أن يصفه أبو الحسن الجرجانى بلا بداع والاختراع(١) وقد أثار هذا البيت إعجاب النقاد والشعراء حتى أن الفرزدق كان يسجد إذا أنشد هذ البيت ويقو : إنا نعرف مكان السجود فى الشعر كما تعرفونه فى القرآن(٢))

وهناك الخاص البديع الذى شاع حتى أصبح فى حكم العام المشترك فلا يكون فيه سرقة ، يقول القاضى الجرجانى : « ... وصف سبق المتقدم إليه ففاز به ثم تناول بعده فكثروا واستعمل فصار كالأول فى الجلاء والاستشهاد ، والاستفاضة على ألسن الشعراء ، فحمى نفسه عن السرق وأزاو عن صاحبه مدمة الأخذ ، كما يشاهد ذلك فى تمثيل الطلل بالكتاب والبرد والفتاة بالغزال فى جيدها وعينها والمهاة فى حسنها وصفائها » .

وعلى هذا النحو نرى نظرية الآمدى تكتمل شيئا فشيئا على يد الجرجانى حتى تصبح :

١ — لا سرقة فى المعنى العام ، ولا فى الخاص الذى أصبح لشيوعه وانتشاره كالعام المشترك .

---

(١) الوساطه ص١٨٦

(٢) الموازنة ص١ ص٤٨٩

٢ — لا سرقة فى الألفاظ المباحة المتداولة ، وإنما السرق فى اللفظ المستعمل استعمالا أصيلا بديعا .

فاذا نظرنا فى كتاب « الصناعتين ، لأبى هلال العسكرى ٣٩٥ هـ ، وجدناه يرى أن المعانى حق مشترك بين الناس جميعا ، « فليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعانى ممن تقدمهم والصب على قوالب من سبقهم ولكن عليهم إذا أخذوها أن يكسوها ألفاظا من عندهم ، ويبرزوها فى معارض من تأليفهم ، ويوردوها فى غير حليتها الأولى ، ويزيدوها فى حسن تأليفها وجودة تركيبها ، وكمال حليتها ومعرضها ، فإذا فعلو ذلك فهم أحق بها ممن سبق إليها ، ولولا أن القائل يؤدى ما سمع لما كان فى طاقته أن يقول ، وإنما ينطق الطفل بعد استماعه من البالغين ، وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه : لولا أن الكلام يعاد لنفد ..(١) .

وأشار إلى أنواع الأخذ فقال : وسمعت ما قيل : إن من أخذ معنى بلفظه كان له سارقا .

ومن أخذه ببعض لفظه كان له سالخا .

ومن أخذه فكساه لفظا من عنده أجود من لفظه كان أولى به ممن تقدمه .

ثم أشار إلى أن البارع هو الذى يستطيع أن يخفى دبيبه إلى المعنى ، فيأخذه فى ستره ، حتى يحكم له بالسبق إليه ، وأحد أسباب اخفاء السرق أن يأخذ معنى من نظم فيورده فى نثره ، أو من نثر فيورده فى نظم ،

---

(١) الصناعتين : حـ١ ص١٨٩

أو ينقل المعنى المستعمل فى صفـــة خمر فيجعله فى مديح ، أو فى مديح فينقله إلى وصف إلا أنه لا يكمل لهذا إلا المبرز ، والكامل المقدم(١) .

ثم أخذ فى عرض الأمثلة التى تؤيد قوله ، وأعانه على ذلك ذوق أدبى رفيع وحافظة واعية لكثير من فنون الشعر والأدب ، واستطاع بهذه المعرفة أن يفطن إلى حيل الأدباء ، ويهتدى إلى مواضع السطو أو الاحتذاء فقال :

وربما أخذ الشاعر القول المشهور ، ولم يبال كما فعل النابغة فانه أخذ قول رجل من كندة فى عمرو بن هند .

هو الشمس وافت يوم رجن فأفضلت
على كل ضوء والملوك كواكب

فقال :

بأنك شمس والملـــوك كواكب
إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

ومن أخفى دبيبه إلى المعنى وستره غاية الستر ، أبو نواس فى قوله :

أعطتك ريحانهـــا العقـــار
وحسان من ليلك انسفار(٢)

إن كان قد أخذه من قول الأعشى على ما حكوا ، فقد أخفاه غاية الاخفاء وقول الأعشى :

---

(١) الصناعتين : ص١٩١

(١) أعطتك ريحانها العقار : أى ريحانها العقار ، أى شربتها فانتقل طيبها إليك .

وسبيئة عما تعتق بابل
كدم الذبيح سليبها جريالها(١)

سئل الأعشى عن : سليبها جريالها — فقال : شربتها حمراء ، وبلتها بيضاء ، فبقى حسن لونها فى بدن .

وممن أخفى الآخذ أبو تمام فى قوله :

جمعت عرى أعمالها بعد فرقة
إليك كما ضم الأبانيب عامل

قالوا هو من قول الحبال الربعى

أولئك اخوان الصفاء رزيتهم
فما الكف إلا أصبع ثم أصبع(٢)

وفى الموازنة للآمدى أنه أخذه من قول بشار :

خلقوا قادة فكانوا سواء
كسكعوب القناة تحت السنان

وهكذا قول بشار :

يا أطيب الناس ريقا غير مختبر
الا شهادة أطراف المساويك

من قول سليك

وتبسم عن ألمى اللثاة مفلج
خليق الثنايا بالعذوبة والبرد

---

(١) السبيئة : الخمر . وجريالها : لونها .
(٢) الصناعتين : حـ ١ ص ١٩٢

ومن قول بشار :

علمنى جودك السماح فما أبقيت شيئا لدى من صلتك

من قول ابن الخياط :

لمست بكفى كفه أبتغى الغنى
ولم أدر أن الجود من كفه يعدى
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى
أفدت وأعدانى فأتلفت ما عندى

ومما أخذ فجاء به أحسن رصفا وزاد فى المعنى زيادة بينة .. قول البحترى :

فمن لؤلؤ تجلوه عن ابتسامتها
ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

أحسن لفظاً وسبكا من قول أبى حية :

إذا هن ساقطن الحديث كأنه
سقاط حصى المرجان من سلك ناظم

وبيت البحترى أتم معنى ، لأنه تضمن ما لم يتضمنه بيت أبى حية من تشبيه الثغر بالدر .

وقال أعرابى : إن الندى حيث ترى الضغاطا . .

الضغاط : الزحام .

فأخذه بشار ، وشرحه وبينه فقال :

يسقط الطير حيث ينتشر الحب وتغشى منازل الكرماء ومثله قول الآخر :

يزدحم الناس على بابه والمنهل العذب كثير الزحام

وأخبرنا أبو أحمد قال : قال أبو العيناء : سمعت أبا نواس يقول : والله ما أحسن الشماخ حيث يقول :

إذا بلغتني وحملت رحلي عرابة فاشرقي بدم الوتين(١)

هلا قال كما قال الفرزدق :

علام تلتفتين وأنت تحتي وخير الناس كلهم أمامي
متى تردي الرصافة تستريحي من التهجير والدبر الدوامي(٢)

وكان قول الشماخ عيبا عندي فلما سمعت قول الفرزدق تبعته فقلت :

وإذا المطي بنا بلغن محمدا فظهورهم على الرحال حرام
قربننا من خير وطيء الحصى فلها علينا حرمة وذمام

وسمع بشار قول المجنون :

ألا إنما ليلى عصا خيزرانه إذا غمزوها بالأكف تلين

فقال : والله لو جعلها عصا من زبد أو مخ ما أحسن . ألا قال كما قلت :

وحوراء المدامع من معد كأن حديثها قطع الجمان(٣)
إذا قامت لحاجتها تثنت كأن عظامها من خيزران

---

(١) عرابة : بالفتح اسم رجل من أوس الأنصار . الوتين : عرق لاصق بالصلب من باطنه ، يسقي العروق كلها بالدم ، يقول لدابته : إذا أوصلتني إلى عرابة فلا يعنيني أن تموتي بعد ذلك . وقد ورد أن أحيحه لما سمع قوله قال له : بئست المجازة جازيتها .

(٢) الدبر : من الدبرة بالفتح : قرحة الدابة ، أو كالجراحة تحدث من الرحل أراد به : السفر الدائم .

(٣) في رواية : كأن حديثها ثمر الجنان . والجمان حب يتخذ على أشكال اللؤلؤ ، من فضة فارسي معرب ، واحدته جمانة .

قال بعضهم للربيع بن خيثم وقد رأى اجتهاده فى العبادة : أتعبت نفسك ، قتلت نفسك . فقال راحتها أطلب .

فقال الشاعر :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

وقال غيره :

تقول سليمى لو أقمت بأرضنا ولم تدر أنى للمقام أطوف

ومثل ذلك أن بعضهم رأى أعرابيا مقبلا إلى مكة ليصوم فيها شهر رمضان والحر شديد ، فقال له : أتجمع على نفسك الصوم وحر تهامة ؟ فقال : من الحر أفر .

وقال بشار :

الدهر طلاع بأحداثه ورسله فيها المقادير
محجوبة تنفذ أحكامها ليس لنا عن ذلك تأخير

فأتبعه ابن الرومى ، وأحسن الاتباع أيضا فقال :

بطل عن الحرب العوان بمعزل وآثاره فيها وإن غاب شهد
كما احتجب المقدار والحكم حكمه على الخلق طرا ليس عنه يعرد

إلا أن قول بشار أكثر ماء ، وطلاوة . .

ثم تحدث أبو هلال عن قبح الأخذ فقال : وقبح الأخذ أن تعمد إلى المعنى فتتناوله بلفظة كله ، أو أكثره ، أو تخرجه فى معرض مستهجن ، والمعنى إنما يحسن بالكسوة .

أخبرنا بعض أصحابنا قال : قيل للشعبى : إنا إذا سمعنا الحديث منك نسمعه بخلاف ما نسمعه من غيرك : فقال : أنى أجتديه عارياً فأكسوه من غير أن أزيد فيه حرفا . أى من غير أن أزيد فى معناه شيئا .

وجاء عبد القاهر فحاول وضع نظرية واضحة يعالج فى ضوئها هذه القضية مستفيداً بآراء من سبقه من العلماء فقال : إن الحكم على الشاعر بأنه أخذ من غيره وسرق واقتدى بمن تقدم وسبق لايخلو من أن يكون فى المعنى صريحا أو فى صيغته تتعلق بالعبارة »(١) .

وتكلم على المعانى وجعلها قسمين : عقلى ، وتخييلى .

ورأى أن العقلى لا يحدث فيه توسع بين القائلين .

والتخييلى هو الذى يفتح باب الصنعة والتفنن أمامهم ، وهو مفتن المذاهب كثير المسالك لايكاد يحصر . . فمنه مايجىء مصنوعا قد تلطف فيه واستعين عليه بالرفق والحذق حتى أعطى شبها من الحق ، وبشى رونقا من الصدق ومثاله قول أبى تمام :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى
فالسيل حرب للمكان العالى

فهذا تخييل إلى السامع أن الكريم إذا كان موصوفا بالعلو والرفعة فى قدره وكان الغنى كالغيث فى حاجة الخلق إليه وعظم نفعه وجب بالقياس أن يزل عن الكريم زليل السيل عن الطود العظيم ، ومعلوم أنه قياس تخييل وإيهام لا تحصيل وإحكام فالعلة فى أن السيل لايستقر على الأمكنة العالية أن الماء سيال لايثبت إلا إذا حصل فى موضع له جوانب تدفعه عن الانصباب وتمنعه عن الانسياب وليس فى الكريم والماء شىء من هذه الخلال(٢) .

وتبعا لهذا تحدث عن التعليل التخييلى الذى سماه المتأخرون « حسن التعليل » وتناسى التشبيه ، والاستعارة ، وادعاء الحقيقة فى المجاز .

---

(١) أسرار البلاغة ص ٢٤١
(٢) أسرار البلاغة ص ٢٤٥

ثم عاد ليقرر « أن الشاعرين إذا اتفقا لم يخل ذلك من أن يكون فى الغرض على الجملة والعموم ، أو فى وجه الدلالة على ذلك الغرض(١) .

ورأى أن الاتفاق فى الغرض على العموم لايدخل فى الأخذ والسرقة .

وأما الاتفاق فى وجه الدلالة على الغرض فيجب أن ينظر فإن كان مما اشترك الناس فى معرفته وكان مستقرا فى العقول والعادات فإن حكم ذلك وإن كان خصوصا فى المعنى حكم العموم من ذلك التشبيه بالأسد فى الشجاعة وبالبحر فى السخاء وبالبدر فى النور . . وإن كان مما ينتهى إليه المتكلم بنظر وتدبر ويناله بطلب واجتهاد ولم يكن كالأول . . فهو الذى يجوز أن يدعى فيه الاختصاص والسبق والتقدم والأولية وأن يجعل فيه سلف وخلف ومفيد ومستفيد وأن يقضى بين القائلين فيه بالتفاضل والتباين وأن أحدهما فيه أكمل من الآخر وأن الثانى زاد على الأول ونقص عنه ، وترقى إلى غاية أبعد من غايته أو انحط إلى منزلة هى دون منزلته(٢) .

ثم قرر أن العام المشترك قد يعبر عنه الشاعر تعبيراً أصيلا فيمتلكه وينفرد به فقال : « واعلم أن ذلك الأول وهو المشترك العامى والظاهر الجلى والذى قلت إن التفاضل لايدخله والتفاوت لا يصح فيه إنما يكون كذلك منه ما كان صريحا ظاهراً لم تلحقه صنعة ، وساذجا لم يعمل فيه نقش ، فأما لمذا ركب عليه معنى ووصل به لطيفة ودخل إليه من باب الكناية والتعريض والرمز والتلويح فقد صار بما غير من طريقته واستؤنف من صورته واستجد له من المعرض وكسى من دل التعرض داخلا فى قبيل الخاص الذى يتملك بالفكرة والتعمل ويتوصل إليه بالتدبر والتأمل وذلك كقولهم وهم يريدون التشبيه « سلبن الظباء العيون » .

---

(١) أسرار البلاغة ص ٣١٣

(٢) أسرار البلاغة ص ٣١٤

كقول بعض العرب :

سلبن ظباء ذى نفر ظلاها ونجل الأعين البقر الصوارا

وقوله :

إن السحاب لتستحى إذا نظرت إلى ندالك فعاسته بما فيها

وكقوله :

لم تلق هذا الوجه شمس نهارنا إلا بوجه ليس فيه حياء

وكقوله :

واهتز فى ورق الندى فتخيرت حركات غصن البانة المتأود

وكقوله :

فأمضيت من قرب إلى ذى مهابة
أقابل بدر الأفق حين أقابله
إلى مسرف فى الجود لو أن حاتما
لديه لأمسى حاتم وهو عاذله

فهذا كله فى أصله ومغزاه وحقيقة معناه تشبيه ، ولكن كنى لك عنه وخودعت فيه وأتيت به من طريق الخلابة فى مسلك السحر ومذهب التخييل فصار لذلك غريب الشكل بديع الفن مفيع الجانب لا يدين لكل أحد وأبى العطف لا يدين ؛ إلا للمروى المجتهد ، وإذا حققت النظر فالخصوص الذى تراه والحالة التى تراها تنفى الاشتراك وتأباه إنما هما من أجل أنهم جعلوا التشبيه مدلولا عليه بأمر آخر ليس هو من قبيل الظاهر المعروف بل هو فى حد لحن القول ، والتعمية اللذين يتعمد فيهما إلى إخفاء المقصود حتى يصير المعلوم اضطرارا يعرف امتحانا واختبارا كقوله :

مررت بباب هند فكلمتنى فلا والله ما نطقت بحرف

فكما يوهمك باتفاق اللفظ أنه أراد الكلام ، وأن الميم موصولة باللام كذلك المشبه إذا قال : مرقن الظباء العيون — فقداوهم أن ثم مرقة وأن العيون منقولة إليها من الظباء وأن كنت تعلم إذا نظرت أنه يريد أن يقول: إن عيونها كعيون الظباء فى الحسن والهيئة وفترة النظر »(١) .

فالمعانى المشتركة تتحول بالصنعة البديعة إلى صورة غير صورتها ، والبيتان قد يكونان فى معنى واحد ولكن يختلف أحدهما عن الآخر فى صورته بخواص ومزايا وذلك « أن سبيل المعانى سبيل أشكال الحلى كالخاتم والشنف والسوار ، فكما أن من شأن هذه الأشكال أن يكون الواحد منها غفلا ساذجا لم يعمل صالغه فيه شيئاً أكثر من يأتى بما يقع على عليه اسم الخاتم إن كان خاتماً والشنف إن كان شنفا ، وأن يكون مصنوعاً بديعاً قد أغرب صانعه فيه كذلك سبيل المعانى أن ترى الواحد منها غفلا ساذجا عامياً موجوداً فى كلام الناس ، ثم تراه نفسه وقد عمد إليه البصير بشأن البلاغة وإحداث الصور فى المعانى فيصنع الصانع الحاذق حتى يغرب فى الصنعة ويدق فى العمل ويبدع فى الصياغة »(٢).

وواضح أن الإختلاف هنا يكون فى خصوصية الكلام وهيأته ودقائقه التى تحيله إلى شيء آخر « ولا يغرنك قول الناس : قد أتى بالمعنى بعينه وأخذ معنى كلامه فأداه على وجهه فإنه تسامح منهم ، والمراد أنه أدى الغرض ، فأما أن يؤدى المعنى بعينه على الوجه الذى يكون عليه فى كلام الأول حتى لا تعقل ههنا إلا ما عقلة هناك ، وحتى يكون حالها فى نفسك حال الصورتين المشتبهتين فى عينك كالسوارين ، والشنفين ففى غايه الإحالة وظن يفضى

---

(١) أسرار البلاغة ص ٣١٦

(٢) دلائل الإعجاز ص ٢٦٦

بصاحبه إلى جهالة عظمة، وهى أن تكون الألفاظ مختلفة المعانى إذا فرقت ومتفقتها إذا جمعت وألف منها كلام »(١) .

ومعنى هذا أن عبد الظاهر يقرر أن الجمـــل لا تترادف وأن المعانى فى الأدب إنما تتميز بأشكالها وصورها وضواحها ، وليس محض الفكرة مما يشغل به الأديب والشاعر. وكيف يكون ذلك والشعر صياغة وضرب من التصوير كما يقول الجاحظ(٢) .

فالفرق كبير بين قول الناس «الطبع لا يتغير» ولست تستطيع أن تخرج الإنسان عما جبل عليه ، فتراه معنى غفلا عاميا معروفا فى كل جيل وأمة ، ثم تنظر إلى قول المتنبى .

يراد من القلب نسيانكم
وتأبى الطبـاع عـــلى النـاقل

فتجده قد خرج فى خرج فى أحسن صوره ، وتراه قد تحول جوهرة بعد أن كان خرزة وصار أعجب شىء بعد أن لم يكن شيئاً » .

وتحدث عبد القاهر عن المعانى المتداولة بين الشعراء وقسمها قسمين :

قسم : يأتى فيه أحد الشاعرين بالمعنى غفلا ساذجا بينما يخرجه الآخر فى صورة تروق وتعجب .

وقسم : يبدع فيه كل واحد من الشاعرين ، وهو القسم الذى يصول فيه البلاغى مقارنا بين الصور مبرزاً ماحوته من ألوان الجمال .

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٨٠

(٢) التصوير البيانى ص ٤٢٤ وما بعدها .

يقول : « وقد أردت أن أكتب جملة من الشعر الذى أنت ترى الشاعرين فيه قد قالا فى معنى واحد وهو ينقسم قسمين :

قسم أنت ترى أحد الشاعرين فيه قد أتى بالمعنى غفلا ساذجا وترى الآخر قد أخرجه فى صورة تروق وتعجب .

وقسم أنت ترى كل واحد من الشاعرين قد صنع فى المعنى وصور وأبدأ بالقسم الأول الذى يكون المعنى أحد البيتين غفلا وفى الآخر مصوراً مصنوعاً ويكون ذلك إما لأن متأخراً قصر عن متقدم ، وإما لأن هدى متأخر لشىء لم يهتد إليه المتقدم ومثال ذلك قول المتنبى .

بأبى الليالى سهرت من طربى
شوقا إلى من يبيت يرقدها

مع قول البحترى :

ليل يصادفنى ومرهفة الحشا
ضدين أسهره لها وتناق

وقول البحترى :

ولو ملكت زماعا ظل يجذبنى
فودا لكان ندى كفيك من عقلى

مع قول المتنبى :

وقيدت نفسى فى ذراك محبة
ومن وجد الإحسان قيداً تقيداً

ومثال ما أنت ترى فيه كل واحد من البيتين صنعة وتصويراً وأستاذه على الجملة قول لبيد .

وأكذب النفس إذا حدثتها
إن صدق النفس يزرى بالأمل

مع قول نافع لقيط

وإذا صدقت النفس لم تترك لها
أملا وبأمل ما اشتهى المكذوب

وقول رجل من الخوارج أوتى به الحجاج فى جماعة من أصحاب فطرى فقتلهم ومن عليه ليد كانت عنده وعاد إلى فطرى فقال له فطرى: عاود قتال عدو الله الحجاج ، فأبى وقال :

أأقاتل الحجاج عن سلطانه
بيد تقر بأنها مولاته
ماذا أقول إذا وقفت إزاءه
فى الصف واحتجت له فعلاته
ونحدث الأقوام أن صنائعاً
غرست لدى فحنظلت نخلاته

مع قول أبى تمام :

أسربل هجر القول من لوهجرته
إذن لهجا فى عنه معروفه عندى

وقول النابغة :

إذا ماغدا بالجيس حلق فوق
عصائب طير تهتدى بعصائب
جوانح قد أيقن أن قبيله
إذا ما التقى الصفان أول غالب

مع قول أبي نواس :

وإذا مج القنا علقا وتراءى الموت فى صوره
راح فى ثنيي مقاضة أسد يدمى شبا ظفره
يتأبى الطير غدوته ثقة بالشبع من جزره

وقد روى المرزبانى أن عمرو الوراق قال : رأيت أبا نواس ينشد قصيدته التى أولها : أيها المنتاب من عفره ، فحسدته فلما بلغ إلى قوله :

يتأبى الطير غدوته ثقه بالشبع من جزره

قلت له : ماتركت للنابغة شيئا حيث يقول :

إذا ماعدا بالجيش

فقال : اسكت فلئن كان سبق فما أسأت الإتباع .

يقول عبد القاهر : وهذا الكلام من أبى نواس دليل بين فى أن المعنى ينقل من صورة إلى صورة ، ذلك لأنه لو كان لا يكون قد صنع بالمعنى شيئا لكان قوله : فما أسأت الإتباع ، محالا ، لأنه على كل حال لم يتبعه اللفظ .

ثم إن الأمر ظاهر لمن نظر فى أنه قد نقل المعنى عن صورته التى هو عليها فى شعر النابغة إلى صورة أخرى وذلك أن ههنا معنيين :

أحدهما :أصل وهو علم الطير بأن الممدوح إذا غزا عدوا كان الظفر له وكان هو الغالب .

والآخر : فرع وهو طمع الطير فى أن تتسع عليها المطاعم من لحوم القتلى وقد عمد النابغة إلى الأصل الذى هو علم الطير بأن الممدوح يكون

الغلب فذكره صريحا وكشف عن وجهه واعتمد فى الفرع الذى هو طمعها فى لحوم للقتلى وأنها لذلك تحلق فوق على دلالة الفحوى .

وعكس أبو نواس القصة فذكر الفرع الذى هو طمعها فى لحـــوم القتلى صريحا فقال كما ترى «ثقة بالشبع من جزره» وعول فى الأصل الذى هو علمها بأن الظفر يكون للمدوح على الفحوى ، ودلالة الفحوى على علمها أن الظفر يكون للمدوح هى فى أن قال ! من جزره ، وهى لاتثق بأن شبعها يكون من جزر الممدوح حتى تعلم أن الظهر يكون له، أفيكون شىء أظهر من هذا فى النقل عن صورة إلى صورة(١) .

ومن هذا الذى ينظر إلى بيت الخارجى وبيت أبى تمام فلا يعلم أن صورة المعنى فى ذلك غير صورته فى هذا ؟ كيف ، والخارجى يقول واحتجت له فعلانه .

ويقول أبو تمام : إذن لهجانى عنه معروفة عندى ، ومتى كان أحتج، وهجا واحداً فى المعنى ؟ وكذلك الحكم فى جميع ماذكرناه(٢) .

فالمعنى لا يتحـــد أبداً من جميع وجوهه ، ولا يتكرر بكل شياته وخصائصه .

وفى ضوء هذا يرسم عبد الظاهر الطريق السديد لتناول الأدب والشعر تناولا يكشف عن الخصائص والرقائق التى بها يكون الأدب أدبا ،

---

(١) دلائل الإعجاز ص٣٨٤

(٢) دلائل الإعجاز ص ٣٨٨

واستبعاد ماعدا ذلك كالمعنى الشائع والغرض العام ، فإن من شأن من يقضى فى جنس من الأجناس بفضل أو نقص ألا يعتبر فى قضيته تلك إلا الأوصاف التى تخص ذلك الجنس وترجع إلى حقيقة ولا ينظر فيها إلى جنس آخر وإن كان من الأول بسبيل ، أو متصلا به أتصلا لاينفك منه .